الهرب من الإجازة

خالد علي مصطفى

تُوُفّيتْ جدّتي، أمّ أبي، بعد أن أدركها أرذلُ العمر. كانَ عليَّ أن أحصلَ على إجازةٍ مدّتُها ثلاثة أيام، كيما أشاركَ أبي وأعمامي وأقاربي وعشيرتي شعائرَ الجنازةِ والدّفن ومجلسَ الفاتحة، وفقاً للأصول المرعيّة.

كنتُ معلّماً مستجداً في قريةٍ قريبةٍ من بلدتنا، وكان سهلاً عليَّ أن أتنقّلَ بينهما، في كلّ يوم، على طريقٍ ترابيٍّ يثيرُ من الغبارِ في جوف السيارةِ أكثرَ ممّا يُثيره تحت عجلاتها. ومع ذلك. فقد كان الطريق سالكاً، آمناً، مواتياً.

قدّمْتُ طلباً بالإجازة إلى السيّد مدير المدرسة؛ نظر إليَّ مشفقاً وقال:

– «البقية في حياتك؛ لكن لم يمضِ على عملك أكثر من شهر!»

– «هذه مسألة ليست بيدي، كما تعرف.»

– «سأرفع الطلب إلى المديرية بالمحافظة. وسأحاول أن أحضر مع المعلّمين، مساء غدٍ، في مجلس الفاتحة.»

– «افعل ما تراه مناسباً. عليَّ أن ألحق بالجنازة قبل الدفن.»

حين وصلت إلى البيت، وجدتُ كلَّ شيءٍ مُعَدّاً، كان المعنيّون بالأمر قد غسلوا جدتي، وكفنوها، وَتَوْبَتُوها، وصلّوا عليها، واستحصلوا أمرَ دفنها من السلطات المختصّة. لم يبقَ غير أن تنتظمَ جموعُ المشيّعين في موكبٍ جنائزيّ إلى المقبرة، خارجَ المدينة.

كان موكب الجنازة رائعاً ومنظّماً بصورةٍ تدعو إلى الدهشة! لم تشهد مدينتنا الصغيرة، فيما رأيتُ، موكباً جنائزيّاً، أو غيرَ جنائزيٍّ، بمثل هذه الروعة والتنظيم: كان النعش محمولاً على الأكتافِ في بداية الموكب، ومن ورائه سارَ أبي وأعمامي وكبار المسؤولين بالبلدةِ في خطٍّ مستقيم؛ وسارَ من بعده ركب المشيّعين الضخم وهو يرجو ثواباً عند الله. حاولتُ أن أحصل على شيءٍ من هذا الثواب بالمشاركة في حمل النعش، غير أنّ المتطوعين الذين سارعوا الى نَيْل الثّواب كلّه قد حالوا بيني وبينه؛ فانتحيتُ رُكْناً قصيّاً من الموكب، وسرتُ مع السائرين صامتاً، ومن حواليّ تتصاعد «لا إله إلا الله ...»

كنتُ أحسُّ بشيءٍ من الضيق في النَّفَس، والجفافِ في العين؛ غير اني كنتُ أرى إلى أقدام المشيّعين وهي تختلط بعضها ببعض من وراء طبقات الغبار التي تثيرها النعال – تتصاعدُ وتعلق بالوجوه والثياب، وتتسرب مع التنفّس إلى الرئتين ممزوجةً بدخان السجائر. كانت مئاتُ الأقدام ذاهبةً إلى القبر لتوديع جدّتي والترحُّم عليها. لم أكن أتخيّل أنّ بمقدورِ الموت أن يَحشد هذه الكثرة الكاثرة من الخلق، ويسوقهم طائعين وراء جُثّةٍ لم تدر ما معنى الحياة والموت في حياتها وموتها. لقد ماتت جدتي عن عمرٍ طُولُهُ قَرْنٌ أو شبه قرن – ماتت، ولم تترك عليهِ بصمة إبهامٍ واحدة. لم تعرف عنه شيئاً، ولم يعرف عنها شيئاً. ماتت، وهي مشغولةٌ عنه بإنجاب البنين والبنات فقط.

كانت التهليلات تخترق أذنيَّ وتصلُ واهنةً إلى جوف جمجمتي؛ فلم تستطعْ أن تنتزعني من نفسي إلى الأزياء والوجوه والقامات وما يحيط بها من سماءٍ وغبار. رحمك الله، يا جدتي. أصبحتِ في الموتِ أقوى منكِ في الحياة. كنتِ رُمّةً في سنواتكِ الأخيرة. لا ينفع – تصلحين – ولا يضرّ شبه عمياء! تتقلّبين على الأيدي كطفلٍ في أسبوعهِ الأول. وتُلقين علينا حكمةَ أرذلِ العمر؛ فلا نستطيع أن نَتقي رائحةَ القبرِ من تحت ثيابك. نهرب منكِ وننجذب إليك. وها أنتِ قد أطلَقْتِ صفّارة الإنذار، ومضى الحشد وراءك إلى القبر – أهو قبرُكِ، أم قبرُهم، أم قبري؟

وصل المشيّعون إلى المقبرة، وتحلّقوا حول فوهة القبر في دائرةٍ كثيفة متزاحمة وقد أحاطت بها دائرةٌ أخرى أقلّ ازدحاماً: كلٌّ يريد أن يرى جدّتي كيف تهبط إلى العالم السفليّ. وقفت قريباً من الشيخ الملقّن الذي «قَرْمَزَ» على حافة القبر يتلو آياتٍ من الذكر الحكيم. انهمك اثنان من حفّاري القبور في هيئة اللحد وإعداده لاستقبال جدتي. حتّى إذا هَبطَتْ الجثة إلى اللحد، وسُوِّيت عليها الصفائح، وبدأ الملقّنُ بعمليات التلقين المعهودة، وجدتُ نفسي تهبط مع هبوط الجثّة، في المكان الذي يمكن أن تكون فيه قائمةٌ أو قاعدة؛ في الزمان الذي لا يحتاج إلى مِزولةٍ أو ساعةٍ أو ظلّ. كنت هناك أنتظر، مع جدتي، المَلَكَيْن الموكّلين باستجواب الموتى. أسمعُ صوتَ الملقّن يأتي واضحاً، يُرشدني إلى ما ينبغي لي أن أجيبَ به عن أسئلة الملكين: من نبيّك؟ وما دينُك؟ وما كتابك؟ ... وأنا ما زلت أنتظر واستعدّ. لا أظن أني سأتلعثمُ أو أتردد في الإجابة؛ فليس لي من الذنوب ما يحول بيني وبين ردّ الجواب الصحيح، كما لم يُتَح لعمري الذي تعدّى العشرين بقليل أن يخوض معاركه الخاسرة التي يترتّبُ عليه إثمها. كنت أسمع من وراء القبر: «ثَبِّتوا القبر، إنها الآن تُسأل». أنا الذي سَيُسْأَل. لم يأتِ، بعدُ، المَلَكان. ما الذي قد يجدانه في جدّتي حين يأتيان؟ خمسةَ بنين وثلاث بناتٍ، عدا من ماتَ أثناءَ الوضع! اسألوني أنا، أيها المَلَكان، عمّا يمكن أن أرتكبه من معاص لو سارت معاركي إلى نهايتها؛ اسألوني أنا، ولا توقظوا جدّتي المسكينة من موتها بعد ضجيج قرنٍ كامل. انشقّ الفضاء الغائم عن شبحين مجنّحين، هبطا ووقفا أمامي. لقد حفظتُ الدور جيداً، بعد أن سمعت التلقين، وها هي الكلمات تتدافعُ على لساني، تريد أن تخرجَ قبل أن تتلقى الأسئلة. سَيْطرتُ على نفسي كي لا يحدث شيءٌ يُفسدُ الأدوارَ المرسومة. تطلّع الشبحان المجنّحان إليَّ قليلاً. ثم التفتَ أحدهما إلى الآخر قائلاً:

– «أهذا هو الذي أُمرنا باستجوابه؟»

– «هذا شاب؛ والأمر الذي نحمله يُشير إلى امرأةٍ عجوز.»

– «وما العمل؟»

– «نطرده من هنا. هذا المكان محرَّم عليه، حتَّى الآن.»

أدار الشيخان وجهيهما نحو وجهي، رَفَعَ كلٌّ منهما ذراعاً، وأشارت كلُّ ذراعٍ، بإصبعٍ من يدها، نحوي؛ ثم قالا بصوتٍ واحدٍ:

– «أخرجْ من هنا، على الفور!»

قلتُ متوسِّلاً:

– «أرجوكما؛ نبيِّي ...»

– «أخرجْ من هنا، على الفور!»

– «أرجوكما ...»

– «أخرج من هنا على الفور!»

– «أرجو ...»

– «أخرج من هنا على الفور!»

– «أر ...»

– «أخرج من هنا على الفور!»

تَنَبَّهْتُ إلى أنني ما زلتُ واقفاً حيثُ (يُقَرْمِزُ) الشيخ الملقِّن. أهكذا تطردانني أيها الملكان الموقَّران؟ رأيت المشيعين يُهيلون الترابَ على جدّتي بالمساحي والأيدي، حين ارتفع عن مستوى الأرض، على هيئة تلٍّ صغيرٍ مستطيلٍ، مستدقِّ الحافة. جاء رجلٌ يحملُ دلواً من الماء، راح يرشُّهُ على تُراب القبر؛ في حين أخذ رجل ثانٍ يضرب التراب ويسوّيه بظهر المسحاة. وجاء رجل ثالث يحمل سعفتين، غرس كلَّ سعفةٍ منهما في طرفٍ من طرَفي القبْر. أما الرابع، فجاء ببلاطةٍ مربّعة كُتِب عليها اسم الفقيدة وتاريخ وفاتها. ووضعها عند الرأس. وهكذا رأيت كلَّ شيءٍ: رأيت عنايةً ممتازةً بقبر جدتي، لا أظنّ أنها حظيت بمثلها في حياتها.

مكثْتُ واقفاً على القبر، بعد أن أخذ جمع المشيّعين ينفضُّ تدريجياً. سمعت والدي يقول:

– «بعد انتهاء الفاتحة، سنبني القبر.»

كان يمسك بيدي، لأصحبه في طريق العودة. قلت له:

– «اذهبوا أنتم. سألحق بكم فيما بعد.»

تركني لشأني ومضى. عدت إلى نفسي. كان الكفن الأبيض يتلامح لي من وراء التراب. هل انتهى الملكان الموقّران من استجوابك، يا جدّتي؟ هل استطعتِ أن تجيبي عن أسئلتهما بلا فأفأةٍ، أو لجلجةٍ، أو تردّد، كي تهبّ عليك روائح الجنّة بانتظار يوم الحشر؟ لماذا طردتماني، أيها الملكان الموقَّران – أنا الطريد من الدنيا والآخرة؟ لا أمْرَ لي، ولم أخض، بعد، معاركي! عليَّ أن أغادر الآن، إلى مجلس الفاتحة؛ ولأكونَ في صفِّ أبي، وأعمامي، وأحفاد جدتي، كي أستقبل معهم عبارات العزاء؛ وأكونَ حاضراً في المآدب الكبرى التي تقام، على روح الفقيدة، في مساء كلِّ عزاء؛ وأكونَ منغمراً في نواح النساء وندمهنَّ طوال أيام العزاء ...

فجأةً، وجدتُ الدموعَ تتساقط من عينيَّ، مصحوبةً بنهنهاتٍ مقطعةٍ، جافة؛ وبحراً من الكآبة يصعد من القلب وينتشر في الجسد. حين خرجتُ من المقبرة، كان التوتّر قد زال قليلاً عنّي. كان كلُّ شيءٍ هادئاً، في الظلِّ، بين الدجى والنهار: القبور المتكاثفة على بعضها، كأنَّ الموتى يتزاحمون في لحودهم على موضع يريحون فيه عظامهم النَّخِرة؛ أشجار اليوكالبتوس القليلة المتناثرة الطالعةُ من بين القبور بأوراقها الخضر المغبّرة؛ الطريق الذي تحفُّ جانبيه، هو الآخر، أشجار متباعدة. كلّ شيءٍ مستريح صامت. وأنا متى أستريح؟ منذ الطفولة لم يتغيّر شيء في هذا الصمت، عدا للمقبرة. كانت كلّما ازدادت اتساعاً، قلَّتِ الأشجارُ فيها. خلا الطريقُ من رائحة البشر، إلاّ من رائحتي التي لا أعرف لها لوناً أو طعماً. أيكونُ الملكان الموقَّران قد طرداني من ظلمة القبر لأني بلا رائحة؟ .. بعد قليل، سأجلس في الفاتحة، وستنهال عليَّ الروائح من كلّ أنفٍ وفمٍ، وبدشداشةٍ وكوفيةٍ وعقالٍ وبدلة – من كلّ الأزياء، والقامات، والوجوه؛ ولا بدّ أن تتغلغل الروائحُ عميقاً في مسامات جسدي، ثم تخرج، من جديد، مَعَ العرق والأنفاس، معلنةً عن وجودي!! .. أتراني عشت عشرين عاماً وشيئاً بلا رائحة، حتّى قبَض الله لجدّتي أن تموتَ، لأكتسبَها في مجلس الفاتحة؟ .. شيء جميل. رائحة مكتسبة ... في موتٍ قادم يمكن للملكين الموقرين أن يتعرفا عليَّ فلا يطرداني!.. وإلى أن يحين الموتُ القادم، ستكون رائحتي المكتسبة قد نفدت، فيطردني الملكان الموقران مرّة أخرى. وهكذا ... أنجو من الخلاص! كيف، إذن، أتّقي جَسدي، أنا المعلّق بلا رائحةٍ ولا لونٍ ولا طعم؟

لاحت أمامي، من بعيدٍ شجرة منفردة. كانت متضائلةً، شاحبةً، كئيبة؛ تتمايل فُروعها في التيارات الهوائية بلا صوت. لقد فقدتِ الشجرةُ القدرةَ على النُّطق. وسلَّمتْ نفسها طائعةً ذليلةً للتيارات؛ وعليَّ أن أسلِّمَ نفسيَ طائعاً لمجلس العزاء، كي أتمايل مع روائح الأزياء من كلّ لون أو عطش، والوجوه من كلّ سحنة، والقامات من كلّ طول ... لقد رَفَضَكَ القبر؛ فهل يستقبلك مجلس العزاء؟

منذ أن وصلت إلى البلدة من القرية، وإلى أن انتهت شعائر الجنازة وانفضَّ المشيّعون، لم تدخل بطني لقمةُ خبز، أو جرعة ماء. ومع ذلك، لم أحسّ بجوع. كنتُ أُحسُّ بنوع من الارتخاء يجعلني أُسَحِّلُ قدميَّ على التّراب كالثَّمِل. لا أحملُ جندلاً أو حديداً؛ بل هيكلٌ ضامرٌ يلتصق عليه الجلدُ بلا حشايا، ويتضاءلُ في أطمار يسمونها قميصاً وبنطلوناً! .. هيكلٌ يُقعقِع كأنّه يُريد أن يتفلّت منّي ويتكوّمَ أمامي، تاركاً جلدي يسير خاوياً رخواً إلى الشجرة المنفردة كي ينام في ظلالها الوارفة بعد أن يتطوى على نفسه. أيّة ظلالٍ هذه؟ ألا ترى السماء الكالحة قد ظلَّلتِ الأرضَ كلَّها، وأعلنت عن نسيانها للنهار؟ استلقيتُ على التراب. وأسندتُ ظهري ورأسي إلى جذع الشجرة، ثم أغمضت عينيَّ علّني أدخلُ في النوم اللذيذ. كان تعبُ الجسد، وإرهاقُ القلب يتسربان منّي إلى الخارج، ويتركانني مرتخياً، هادئاً. غير أنَّ النوم لم يقترب منّي: ظلّ واقفاً أمامي، أراوده عن نفسه، فيأبى أن يجيب؛ أحثُّهُ على الاقتراب، فينأى من عينيَّ. كانت أجراس رأسي ما تزال تصلصل وتوسوسُ حتى قَضَت على الارتخاء في جسدي، وشدّت إليها الأطراف والجذعَ، ثم ألحقت بالقلب تسارعاً في النبض، وكآبةً في الإحساس ... النوم يَطرُدُكَ، هو الآخرُ، من حظيرته، ويُعذِّبك بسياطِ الابتعاد. لا فائدة! .. عليك أن تنهضَ وتواصلَ السَّير. لقد التأمَ شملُ الفاتحة: كلُّهم في انتظارك؛ ودِلالُ القهوة تدور على المعزِّين، يحملُها ولدانٌ غير مخلدين، ويطوفون بها على الشاربين! .. أفرغت مثانتي. ومضيتُ في سبيلي.

كانت مكبّرات الصوت تنقل تِلاوة القرآن الكريم من مجلس الفاتحة إلى الفضاء والبيوت. جلستُ حيث جلسَ أبي وأعمامي وأحفاد جدتي في صدر الخيمة الطويلة المفتوحة الجنبين. جلستُ أرى وأسمع: أرى الداخلين يطرحون السلام. أنهض مع أبي وأعمامي وأحفاد جدّتي لنردّ على السلام بسلامٍ أحسن منه. يذهبون إلى أيٍّ من المقاعد الفارغة. يجلسون. تتصاعد من أحد الأفواه:

«رحم الله من قرأ سورة الفاتحة!». تنبسط الأيدي. تتمتم الشفاه. تمسحُ الأيدي الوجوه: «آمين ...». ثمّ تنهال عليهم: «الله بالخير» من كل حدبٍ وصوبٍ، بتلويحاتٍ من الأيدي، أو باستداراتٍ من الرؤوس. أسمعُ أحاديث الجالسين تتداخل، ويركبُ بعضُها بعضاً؛ تنخفض وترتفع؛ تُقَهْقِهُ وتكتئِب – أسمع قرقعة الفناجين في أيدي الولدان غير المخلَّدين، قبل أن تنتقل إلى أيدي الشاربين؛ أسمع الشفاهَ تَتَمَطَّقُ، وهي تحتسي القهوة، بصوتٍ مُنفِّر. كُنتُ، بين أن أرى وأن أسمع، أنهض لردِّ السلام صامتاً، وأنهض لاستقبال كلمات العزاء صامتاً، بالمصافحة والتقبيل معاً ... وهكذا بدأت الروائحُ تصل إليّ تباعاً!

كنت أراقبُ الحركات، وأسمعُ الأصوات، وأعرفُ البقيّة: أعرف أنّ الموت مناسبةٌ ممتازةٌ لتناول فناجين القهوة بلا حساب؛ ولتدخين السجائر وسرقتها خفيةً أو علناً؛ ولِمَلءِ البُطون بأكبر كمّيّةٍ من الطعام بالأيدي التي تعشّش الأوساخ تحت أظافرها – أعرف كلّ ذلك. وأعرف أنّ عليّ أن انهض وأجلس وانهضَ وأجلسَ. بلا طعامٍ أو قهوةٍ أو سجائر!! .. مسكينةٌ أنتِ، يا جدتي. لقد استطعتِ أن تجمعي كلّ هذه الحشود الداخلة الخارجة، وهم غائبون عنك في ثرثراتهم، مثلما أنت غائبة عنهم في حياتك ومماتك. ما من إشارةٍ تدلّ عليك. الموت مناسبة ممتازة. ضوءٌ شديد. ألمٌ قليل. البقيّة في حياتكم. آخر الأحزان، إن شاء الله!

جلسَ في صف الكراسي التي تقابل الصف الذي أجلس فيه، رجلٌ بَدينٌ، تُطوِّقُ دَشداشتُهُ بَطناً كالقُبّة. كان وجههُ يُقابل وجه أحد أعمامي. قرأ «الفاتحة»، ومسح بيديه وجهَهُ؛ أخذ نفساً عميقاً وَصَمَتَ؛ ثمّ تثاءبَ فانتقلت عَدْوَى التثاؤب إلى عمّي، وبدأت بينهما الرسائل: يتثاءب هذا فيُجيبُه ذاك. يتثاءبُ ذاك فيجيبُه هذا ... وهكذا دواليك حتّى ألقى كلٌّ منهما رأسه على صدره، وغاب عن الدنيا، تاركاً الفاتحة لضجّة المستيقظين.

تنبّه أبي إلى إغفاءة عمّي. لكزه بيده في جنبه. فَقَزَّ مرتبكاً؛ ثم همس أبي في أذن عمي كلمات، جعلته ينهض ويغادر المجلس. ظلّ الرجل الضخم الجثة مستغرقاً في نومهِ وقد تشابكت يداه حول قبّة بطنهِ، وتدلّى طرفا كوفيّته من حواليه. لقد عجزت ضجة الفاتحة عن إيقاظه. وفشل مدير القهوة أن يخرجه من نومه بقرع الفناجين أمام وجهه. يا له من إنسانٍ محظوظ! كان نائماً! بعيداً عن الحياة والموت! لو تمنحني، أيها النائم، كأساً من الكرى!... كنت أراه وأعرف البقيّة: أعرف أن البطن قد استولى على الرأس؛ وأعرفُ أن قرقرة البطن تغني عن قرقرة الحنجرة، وأعرفُ أن الحجرَ بريءٌ ذو لونٍ واحد؛ وأعرف أن الوجوه فصولٌ في ميزان الحرارة المتقلّب. فمن أنتَ، أيّها النائمُ، حجرٌ أم فَصْلٌ؟ ذهب عمّي وخلّفني مستيقظاً مستعصياً على العدوى. لقد رأيتُ المشهد، وعرفتُ كلَّ شيءٍ: عرفتُ كيف الْطَخُ وجهي بالضوء الشوكيّ، وأعبرُ الجسر الذي لا نهاية له؛ عرفتُ أنّ النوم حقٌّ في مجلس الفاتحة كحق الموت على جدّتي! ... لكنّ النوم يأبى أن يمنحني شيئاً من هذا الحق. انهض وأجلس، عمّي ينام. الرجل ينام. الضوء الشوكيُّ يتدرب في ساحة وجهي الرحبة. القبر يطردني. النوم يطردني. أيها المستيقظ الأبديّ، يا جَسَدي. متى تنام؟ ...

كنتُ أحسُّ، في كلّ مرّةٍ أنهض فيها لتسلُّم عزاء المعزّين، أنّ هبّاتٍ شَرِسةً من روائحهم تلفح أنفي، وتتغلغلُ في جسدي، ثم تستوطن في عظامي. تكاثرت عليه وفيه الروائح، واختلط بعضها ببعض، مُكَوِّنَةً رائحةً جديدةً هي خلاصةُ كل روائح الثوم والبصل والأغنام والدهن وماء الورد والصوف والبرسيم والمسك ومياه الغسيل. أصبح جسمي مخزناً للروائح. وهو على استعدادٍ تامٍّ لتصدير أية رائحةٍ يطلبها المستوردون من الجنّ والأنس والشياطين والملائكة! فهل يستطيع الملكانِ الموقّران، الموكّلان باستجواب الموتى، أن يَدّعيا، بعد الآن، أني بلا رائحة؟..

وكنتُ أحسُّ، أثناء مصافحة المعزّين، أنّ تيّاراً كهربائيّاً يتسرّب من أيديهم إلى يدي، ثمّ يدبُّ منها إلى جلدي، كما تدبُّ صغار العقارب الصفر تحت قشرة الأرض الرخوة. كانت آثامهم وخطيئاتهم وأوزارهم التي عصروها في دمائهم، منذ سنّ الرشد، هي التي تتسرّب إليّ مع التيار الكهربائي. وتلطّخُ صفحتي البيضاء، وتكسوها طبقات سوداء من الإثم والخطيئة. أصبحتُ تمثالاً من الفحم في هيئة جسمٍ بشري. روائح وفحم. يخرج المعزّون من الفاتحة متطهّرين من آثامهم ويوكّلون جسمي بها، كيما أُصبح الخاطئَ الأول في هذا العالم! فهل أستطيع بعد ذلك، أن أسير في الأرض بكل هذه الأثقال التي ينوء بها جسدي الضامر؟

صدرت منّي شهقة حادّة، كشهقة من يختنق. احتزّ رأسي وانتفض جسمي. رآني أبي. فقال: «ما بك يا بنيّ؟»

– «لا شيء يا أبي.»

قلتُ ذلك، وَهَبَبْتُ واقفاً. وبسرعةٍ برقيّةٍ غادرت مجلس الفاتحة إلى الفضاء المصبوغ بالأسود. إلى السماءِ الليلية التي لم أتبيّن فيها نجمةً واحدةً. أخذت أركضُ وأركضُ وأركض، حتى خرجتُ من البلدةِ إلى الطريق المؤدي إلى القرية. وقفت قليلاً. فتحت أزرارَ قميصي؛ ثم بدأتُ أتنشق الهواء عميقاً. أخذت قدمايَ تريان لي في الظلمة وهما تسيران وئيداً ... وتتّقيان عثرات الطريق. لقد طردني الموت، وطردني النوم. ولم يبقَ لي إلا شيء واحد فقط، عليّ أن أقومَ به مهما قال المتقوّلون: عليّ أن أطردَ الإجازة، واستعيد سيرة أيامي المعهودة الرتيبة – عليّ أن أعود إلى المدرسة. لا شيء لي غير المدرسة. المدرسة. المدرسة. جرسٌ يدقّ للدخول. جرسٌ يدقّ للخروج. وما من إجازة تستطيع إيقاف دقّ الجرس. لمحتُ بصيص ضوءٍ خافت ينتشر أمامي ناحلاً متقطعاً. تَلَفَّتُّ خلفي: رأيت مصباحيْ سيارة قادمة. وقفت في منتصف الطريق الترابي، ورحت ألوّح بيديّ الاثنتين. يقترب المصباحان. يعلو الهدير. يتوقف الضوء.

– «أرجوك، إلى القرية مَعَك!»

رميت نفسي إلى جنب السائق من غير أن انتظر منه الموافقة. كنت أرى الأضواء تتقدم أمامنا، وتكشف الطريق إلى القرية. كانت الأرض ترجع إلى الوراء في الظلمة، مسرعةً. تركت وجهي يستقبل الريح المشبعة برذاذ التراب، من نافذة السيارة.

حين وصلنا القرية، شكرت السائق، وتوجهت إلى المدرسة. فتح الحارس الباب. ونظر إليّ مستغرباً في ضوء فانوسه النفطي. قلتُ له: «افتح لي غرفة المدير. أريد أن أنام!»

تلمّست الأريكة الخشبيّة الممتدة إلى يمين المنضدة، واستلقيت عليها. وإن هي إلا لحظات حتى رأيت رجلين يبتسمان ويغيبان من غير أن يقولا شيئاً. في الصباح رآني المدير جالساً في غرفته على الأريكة. ففغر فاه متعجباً وقال:

– «ما الذي أتى بك؟ والفاتحة؟»

– «ليس الأمر بيدي. كم بقي من الوقت على الدرس الأول؟»

بغداد